الواقع الاقتصادي بمدن الجنوب الجزائري خلال القرن التاسع عشر ميلادي "مدينة ورقلة أنموذجا"

The economic reality of southern Algeria during the 19th century "The city of Ouargla as a model"

قشاشني علي
جامعة جيلالي اليابس (سيدي بلعباس)
kechachni@gmail.com

تاريخ الإرسال: **2022/05/31** تاريخ القبول: **2022/12/09** تاريخ النشر: **2022/12/30**

Abstract:

There is no doubt that the city of Ouargla is one of the major and civilized cities in the south of Algeria, which witnessed different historical developments and circumstances from the Islamic period to the Ottoman era to the colonial era, which left great effects on its structures and local privacy and led to major transformations in many sectors and fields, including The economic field that changed a lot after its local bases and foundations were destroyed and attached to the colonial economy, meeting the need of the French economy in terms of manpower, raw materials and the necessary market for the disposal of new industrial goods and products, these and other transformations that made the city of Ouargla lose that privacy that it knew during previous eras After being one of the vital metropolises in southern Algeria for many centuries, it was considered one of the important desert trade centers that meet and depart from the trans-Saharan convoys and a basic station for the exchange of Sudanese and Maghreb goods and commodities alike, and other activities that reflect the importance of this city in the economic map of Algeria and the

South African region The Sahara in general, and through this article we will try to identify the economic behavior of the city of Ouargla before and after the French occupation of it, and work to clarify its position and role in the economic action of Algeria, as well as follow the various transformations that it witnessed and that would lead us to reveal the economic reality of the city of Ouargla during 19th century

Keywords: Ouargla, Algeria; Sahara; sub-Saharan Africa; oases; economy; French occupation, industry, agriculture, caravans

الملخص:

من الثابت الذي لا شك فيه أن مدينة ورقلة تعتبر من المدن الكبرى والحضارية بالجنوب الجزائري، والتي شهدت تطورات وظروفا تاريخية متباينة ابتداء من الفترة الإسلامية إلى العهد العثماني وصولا إلى الحقبة الاستعمارية التي تركت آثارا كبيرة على بنتيها وخصوصيتها المحلية وأدت إلى تحولات كبيرة في العديد من القطاعات والمجالات بها ومن ضمنها المجال الاقتصادي، الذي تغير كثيرا بعد أن هدمت قواعده وأسسه المحلية وألحق بالاقتصاد الاستعماري ملبيا بذلك حاجة الاقتصاد الفرنسي من القوى العاملة والمواد الخام اللازمة والسوق الضرورية لتصريف السلع والمنتجات الصناعية المستجدة، هذه التحولات وغيرها التي جعلت مدينة ورقلة تفقد تلك الخصوصية التي عرفتها خلال العهود السابقة، بعد أن كانت من الحواضر الحيوية بالجنوب الجزائري لقرون طويلة واعتبرت من المراكز التجارية الصحراوية المهمة التي تجتمع وتنطلق منها القوافل العابرة للصحراء ومحطة أساسية لتبادل البضائع والسلع السودانية والمغاربية على حد سواء، وما إلى ذلك من أنشطة تعكس أهمية هذه المدينة في الخريطة الاقتصادية للجزائر ولمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء عموما، ومن خلال هذا المقال سنحاول الوقوف على المسلك الاقتصادي لمدينة ورقلة قبل وبعد الاحتلال الفرنسي لها، والعمل على تبيان مكانته ودوره في الفعل الاقتصادي للجزائر، إلى جانب

تتبع مختلف التحولات التي شهدها والتي من شأنها أن تقودنا إلى الكشف عن الواقع الاقتصادي لمدينة ورقلة خلال القرن التاسع عشر ميلادي.

الكلمات المفتاحية: ورقلة؛ الجزائر؛ الصحراء؛ إفريقيا جنوب الصحراء؛ الواحات؛ الاقتصاد؛ الاحتلال الفرنسي؛ الصناعة؛ الزراعة؛ القوافل.

مقدمة:

على غرار النطاقين الساحلي والتلي، شهد النطاق الجنوبي للجزائر خلال فترات تاريخية متلاحقة ظهور العديد من المدن والحواضر التي لعبت أدورا حضارية كبيرة وساهمت إلى حد بعيد في تعزيز الصلات الاجتماعية والاقتصادية بين مختلف مناطق الجزائر من جهة، وبين الأقاليم الأخرى كالمغرب وتونس وإفريقيا جنوب الصحراء من جهة أخرى، فشكلت بذلك همزة وصل حضارية لا غنى عنها في المبادلات التجارية والاقتصادية والعلاقات الإنسانية عامة، واستمر الأمر كذلك إلى أن احتل الفرنسيون الجزائر، فحدثت تحولات وتغيرات كبيرة في هذه الحواضر، ومن ضمنها مدينة أو حاضرة ورقلة التي كانت من المناطق الحيوية قبل الاستعمار واعتبرت من المراكز التجارية الصحراوية المهمة التي تجتمع وتنطلق منها القوافل العابرة للصحراء ومحطة أساسية لتتبادل البضائع والسلع السودانية والمغاربية على حد سواء، وما إلى ذلك من أنشطة تعكس أهمية هذه المدينة في الخريطة الاقتصادية للجزائر.

وللوقوف أكثر على جوانب الموضوع من الواجب أن نطرح بعض التساؤلات يمكن صياغتها على النحو التالي، كيف كان الوضع الاقتصادي بمدينة ورقلة قبل الاحتلال الفرنسي؟ وكيف ساهمت هذه المدينة في الاقتصاد الجزائري خلال ذات الفترة؟ ما هي التحولات التي طرأت على اقتصاد مدينة ورقلة خلال القرن التاسع عشر وكيف حدث ذلك؟ وإلى أي مدى أثرت هذه التحولات على الواقع الاقتصادي المحلي بمدينة ورقلة؟ هذه التساؤلات وغيرها سنحاول الإجابة

عليها، عبر توظيف جملة من المناهج التاريخية ووفق خطة عمل ارتأينا أن تكون في شكل مطالب وعناصر حسب طبيعة الموضوع.

1- مدينة ورقلة (المجال والإنسان):

1-1- الإطار الجغرافي:

ورقلة أو هرقلة أو أركلى هي إحدى الواحات الشهيرة بكثرة نخيلها وجودة تمورها على مسافة 160 كلم جنوبي واحة تقرت(1)، تقع بالجنوب الشرقي للجزائر وتتربع على مساحة تصل إلى 163.233 كلم^2، أي بنسبة 6.85 % من المساحة الإجمالية للقطر الوطني، تبعد عن العاصمة بنحو 900 كلم، يحدها شمالا ولايتي الجلفة ووادي سوف وشرقا الجمهورية التونسية وغربا ولاية غرداية، وجنوبيا ولايتي تمنراست وإليزي(2)، تشتمل منطقة ورقلة على العديد من المظاهر التضاريسية السائدة بالصحراء الكبرى عموما كالعروق والحمادات والمرتفعات، حيث تحتل العروق مساحة كبيرة جدا من أراضيها، وتتواجد بكثرة في الجهة الشرقية مثل العرق الطويل، عرق بوصلاح، عرق بوخزنة، عرق الطوارق، هذا إلى جانب الحمادات التي هي عبارة عن هضاب صخرية صلبة تسود المناطق الغربية والجنوبية للمدينة، وكذلك بعض المرتفعات التي تعرف محليا باسم القارة كقارة كريمة، أم الأرانب، الشوف وغيرها(3).

كما تعرف المنطقة بضغطها المرتفع، وتعرضها الكبير للرياح التجارية التي تزداد حرارتها كلما اقتربت من سطح الأرض، وبذلك فهي باردة شتاء وشديدة الحرارة صيفا مع فروق كبيرة بين الليل والنهار وما بين شهر وآخر وفصل وآخر، ففي شهري جويلية وأوت تصل درجة الحرارة إلى 49 درجة في منتصف النهار تحت الظل في الحالات العادية وتصل إلى 50 و 52 تحت الشمس، وتنخفض إلى 35درجة ليلا وتنزل في فصل الشتاء خلال شهري ديسمبر وجانفي إلى 4 درجات ليلا و 18درجة نهارا(4).

وقد جعل الموقع الجغرافي والوضع الطوبوغرافي لورقلة، محلا لتتميز عن بقية الأقاليم الصحراوية الأخرى خاصة بالنسبة للموارد المائية، حيث تتربع على شبكة من الموارد الهائلة سواء بالنسبة لتلك الأودية السطحية أو الجوفية، على الرغم من مناخها الصحراوي الجاف وقلة تساقط الأمطار، وهو ما جعلها تلعب دورا كبيرا في ازدهار وتطور المنطقة، لكون أن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية أصبحت مرهونة بمدى انخفاض منسوب المياه، وبمدى قدرة السكان على استغلال الثروة المائية(5) فورقلة بفضل هذا الوضع الطوبوغرافي المتحكم في مصدر المياه وتوزيع الكثبان، كانت عبارة عن قصر صحراوي، مقام فوق مرتفع من الأرض يشرف على نخيل الواحة ويحيط به سور في أسفله خندق مملوء بالماء، يرد المهاجمين ويبعد المغيرين عليه(6).

1-2- الإطار البشري:

نظرا للموقع الجغرافي المميز الذي جعل من مدينة ورقلة حاضرة من أهم حواضر الجنوب الجزائري عبر عديد الفترات، فقد كانت محل اهتمام من قبل الكثير من المؤلفين العرب وحتى الأجانب، وتمت الإشارة لها في الكثير من المصنفات التاريخية والجغرافية والرحلية وما إلى ذلك، وتم ذكرها عبر تسميات تباين نطقها ومدلولاها اللغوي من كاتب لآخر، فعلى سبيل المثال وردت في كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب للمؤرخ عبد الله البكري، باسم ورجلان(7)، أما الجغرافي الشريف الإدريسي فقد ذكرها باسم وارقلان(8)، وذكرها ياقوت الحموي بلفظة ورجلان بفتح الواو وسكون الراء(9)، كما ذكرها أبو سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا باسم واركلان، ووصفها ببلاد النخيل وأنها منفذ لدخول العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقيا (10) أما المصادر الإباضية كالشماخي والدرجيني(11) فلا تذكرها إلا باسم وارجلان، ونفس الشيء بالنسبة للرحالة المغربي إبن بطوطة الذي زارها سنة 1353، وأوردها ضمن الحواضر التي لها علاقات تجارية معتبرة مع مملكة مالي في عهده(12).

وفي مطلع القرن التاسع الهجري الخامس عشر ميلادي، تعرض لها ابن خلدون بنوع من التفصيل، حيث ذكرها باسم واركلا، وكتب أن " الذين أسسوها هم قبائل بني واركلا الزناتيين،

القادمين من منطقة الزاب، حيث قال :بنو واركلا هؤلاء أحد بطون زناته كانت مواطنهم قبلة الزاب، واختطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثماني مراحل من بسكرة، في القبلة .. منها ميمنة إلى الغرب، بنو قصورا متقاربة الخطة، ثم استبحر عمرانها فائتلفت وصارت مصرا .. ، ويتضح لنا من خلال طرح بن خلدون أن المؤسس الحقيقي للمدينة هو بطن أي فرع من قبيلة زناته البربرية التي حلت بالمنطقة وأسست هذه المدينة من العدم أي لم تجد مدينة قبلها، لكنه لم يحدد لنا التاريخ الذي قدمت فيه هذه القبيلة و أسست المدينة(13).

وفي سنة 1526 زارها الحسن الوزان وذكر ازدهارها ونشاط تجارتها(14)، أما العياشي الذي مر بها سنة 1663 أثناء رحلته الحجية، فذكرها بلفظة "وارقلا" وكتب قائلا " فدخلنا وارقلا قبل غروب الشمس، وكان من لطف الله أن صادف دخولنا دخول قافلة من أعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع، اشترى الناس منهم ما احتاجوا بأرخص ثمن .. وقدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك أو أكثر، فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن، واشترى الحجاج غنما كثيرة حتى كأن تلك الليالي الثلاث التي أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم .." (15).

أما الكتاب والرحالة الغربيون، وبعض الضباط العسكريين مثل : لارجو Largeau دوماس Daumas، تورميلي Trumelet، ليتيليو Lethielliux، بول سولايي P.Soleillet دوفرييي Duveyrier، وغيرهم، فقد ذكروها باسم "ورقلة Ouargla"، وينفرد روفيلواز بريقول R Brigol بنسبته اسم المدينة ونشأتها الأولى لامرأة اسمها "ورقلة " سكنت المكان الذي أقيمت عليه مدينة ورقلة بإقامتها كوخا وغرسها حوله نخيلا(16)، غير أن جون ليتيو له تفسير آخر لمدلول التسمية،حيث أشار إلى أن الكلمة مركبة من جزئين هما: "روا" وتعني الأبناء و"ايكلي أو"إيكلان" وتعني السود، بمعنى أبناء السود وذلك لوجود العديد من الأشخاص ذوي البشرة السوداء بالمدينة(17).

ومن جهة أخرى، استعرض ترومیلي Trumeletsخلال زيارته لورقلة سنة 1853 قصبتها واصفا نمطها العمراني، وأعراشها الثلاثة "بني سيسين، بني وقين، بني إبراهيم وحدد أبواب المدينة وأشار إلى عدد السكان ونشاطاتهم وأوضاعهم الاجتماعية ومختلف القرى والقبائل فيها، وفي مطلع الستينات زارها الرحالة هنري دوفيريي Duveyrier.H وهو في طريقه إلى الهقار قادما من تونس عن طريق وادي سوف ووادي ريغ، حيث مكث يوما واحدا استكشف فيه مدينة سدراتة الأثرية [18].

وبعد رحلة كل من ترومیلي ودوفيري إلى منطقة ورقلة، نظم المستكشف بول صوليه هو الآخر رحلة إلى الجنوب الجزائري، ليصل إلى مدينة ورقلة صباح يوم 09 فيفري 1873 على الساعة السابعة مستقبلا من طرف أغا المدينة، وأقام فيها لمدة ثلاث أم تعرف خلالها على عادات وتقاليد السكان وأهم لهجاتهم اللغوية، وقد وصفها على أنها مدينة بنيت وسط غابة نخيل، وهي الأكثر من حيث النخيل في كل واحات الصحراء بما يعادل خمسة آلاف نخلة، يسكنها الزنوج الذين يلبسون القليل من الملابس، ورؤوسهم عارية والبعض منهم يضع قبعات سيئة الصنع، وهم يحلقون رؤوسهم بشكل غريب، أطفالهم عراة تقريبا، كما يسكنها أيضا البيض وهم الشعانبة وبني مزاب، ولكنهم يغادرون المدينة خلال موسم الحر[19].

وفي نفس السنة زار الرحالة لويس ساي Louis say ورقلة التي وصلها يوم 2 ماي في إطار التبادل التجاري بين ورقلة والجنوب الغربي، قادما من تقرت التي استقر فيها بضعة أيام منتظرا الشطر الأول من المنحة المخصصة لرحلته والمقدرة بخمسة آلاف فرنك فرنسي(5000ف)، وقد حاول هذا الرحالة أن يجعل ورقلة نقطة انطلاق استكشافية نحو عمق الجنوب الجزائري باتجاه الهقار، حيث تجهز من جديد ونظم بعثته، واختار ثلاثة ورقلية مرافقين له، وتقدم إلى غاية تماسنين إلا أنه فشل في مواصلة الرحلة، وذلك بسبب تعرضه لتهديدات من طرف رجال التوارق، فرجع إلى ورقلة يوم 21 جوان، بعدما تبددت أحلامه في استكشاف منطقة الهقار[20]، هذا واستمر

الرحالة الأجانب في اكتشاف مدينة ورقلة وضواحيها وكتبوا الكثير من المصنفات حولها، وخلفوا بذلك العديد من المعلومات التاريخية والمعطيات الميداينة حول المنطقة في مختلف المجالات، كان أن استغلتها السلطات العسكرية الفرنسية لاحتلال المدينة والسيطرة على مقدراتها، بعد أن كانت حاضرة كبيرة لها استقلاليتها الاقتصادية وخصوصيتها الاجتماعية خاصة خلال العهد العثماني.

2- الواقع الاقتصادي بمدينة ورقلة خلال القرن التاسع عشر :

2-1- الحياة الاقتصادية قبيل الاحتلال الفرنسي:

من الثابت الذي لا شك فيه أن مدينة ورقلة كانت إحدى المنافذ الرئيسة بين شمال الجزائر وبلاد السودان خاصة خلال العهد العثماني، بسبب موقعها على مسار الطريق الفاصل والواصل بين بلدان المغرب الكبير وبلاد إفريقيا جنوب الصحراء، وزاد من شأنها استقرار التجار المتنقلين بين الجهتين بها، فنشطت المبادلات بين الطرفين مما جعل منها سوقا تستوعب كل ما يحل بها، بل أضحت مدينة ورقلة كمركز تجاري يستقطب نشاط المناطق الصحراوية الأخرى، ولا أدل على ذلك من إقبال العديد من القبائل على أسواقها كالأرباع، أولاد يعقوب، ولاد سيدي الشيخ، شعابنة متليلي بالإضافة إلى طوارق وتجار مدينة غدامس وغيرهم(21).

كما أعطى الطريق الرئيسي لورقلة أهمية خاصة، والذي يعرف بطريق الواحات والقصور، حيث كان ينطلق من تافلات نحو غدامس، ويتفرع من ورقلة وتوغرت إلى كل من غات وتماسين والقليعة والأغواط والزيبان، وهو الطريق الذي وصفه العياشي في رحلته الحجية سنة1663(22)، إذ كان يمتاز باستتباب الأمن وكثرة الأرباح التي يحصل عليها التجار بواسطته، حيث يصبح التاجر موسرا بعد أن يشارك في رحلة أو رحلتين عبره، فضلا عن كونه طريق أقصر مسافة من طريق التل الواصل بين وتلمسان والجزائر وقسنطينة وتونس، مرورا على مدينة ورقلة(23).

وهناك طريق آخر لا يقل أهمية عن الطريق السابق وهو الطريق المعروف لدى الرحالة والجغرافين العرب بطريق الذهب، الذي كان يمر بورقلة وتوغرت ويربط موانئ بلاد المغرب العربي بالمدن

الرئيسية للممالك السودان كأغاديس وكانو وتمبكتو، فبضل هذه الطرق أصبحت ورقلة ومنطقتها محطة ومستودعا مؤقتا وسوقا استهلاكية لمنتوجات الصحراء والتل والسودان[24].

وكان هذا الطريق يمر عبر فرعين رئيسين، الأول نحو مدينة غات ثم إلى أحير وصولا إلى أغادس، وهو مسلك [25] خال من الماء وعند وصول القوافل تدفع الضرائب لملكها ومنها تنطلق إلى دامركو الواقعة في منتصف الطريق من مقاطعة بورنو، ومنها تقعط نفس المسافة إلى كاتشنا ثم إلى العاصمة ساقوطو ثم إلى كانو التي تعد الواجهة الرئيسية لقوافل ورقلة، أما المسلك الثاني فهو يمر عبر القليعة في مسيرة سبعة أيام، ثم إلى عين صالح ومنها إلى تومبكتو، وفي هذه الأخيرة تنقسم القوافل إلى اتجهات متعددة، فمنها من يتوجه إلى الهوسة والبعض إلى سقاطو، والآخر إلى أحير[26].

ومن جهة أخرى، ظهرت مدينة ورقلة كمركز تجاري جد مهم بالنسبة للمبادلات التجارية الخارجية سيما مع أغاديس وبلاد السودان الغربي، إذ يعتمد سكانها في تجارتهم على إنتاج التمر وصناعة الأقمشة، وجلب المنتوجات الأوربية التي تأتي إلى ورقلة عن طريق منطقة مزاب، كما كان يتم التعامل في أسواق ورقلة وفي ميدان البيع والشراء بطريقة حضارية وراقية لا تختلف كثيرا عن المعامالت المعاصرة، أي عن طريق المزاد العلني وعن طريق المكاييل والموازين وبالعملة المعدنية بالاضافة إلى نظام البيع بالدفع المؤجل[27].

أما التجارة المحلية فكانت تتم على مستوى الأسواق المحلية والجهوية، أو الحوانيت حيث يتم عرض المنتجات فيها سواء تلك المنتجات محلية أو مستوردة، وكان الرحل يعرضون في أسواقها منتجاتهم الخام من وبر وصوف وجلود ويشترون منها السروج لخيولهم وبعض المصنوعات الأخرى، كما أن القبائل سابقة الذكر، كانت تقصد أسواق ورقلة باستمرار، خاصة في فصل الخريف الذي

تكون فيه أسواقها عامرة، لأنه موسم جني التمور، الذي تكون فيه القبائل البدوية مستقرة بالمدينة(28).

غير أن هذا الازدهار التجاري سرعان ما انطفأ ضوئه أواخر العهد العثماني وبالخصوص قبيل الاحتلال الفرنسي لورقلة، ذلك أن التبادل التجاري لم يعد يتجاوز نطاق العشائر البدوية المحلية، كما اختفت معظم منتجات السودان من الأسواق وهذا طبعا راجع إلى عدة أسباب نذكر منها، تحول المسالك التجارية عن منطقة ورقلة، وفقدان هذه الأخيرة لطريق الذهب، وظهور طريق بحري جديد لنقل الذهب من خليج غينيا إلى البرتغال، زيادة على ظهور طريق صحراوي آخر من السودان إلى مصر، وكذلك تراجع اهتمام السلطة العثمانية بالطرق الصحراوية التجارية وعملية التبادل التجاري، وتحول اهتمامها إلى البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى انتشار قطاع الطرق الذي أدى إلى تراجع عدد القوافل التجارية بورقلة، كما أصبحت هذه الطرق غير آمنة تسيطر عليها العصابات البدوية التي تتربص بالقوافل، وأخيرا كثرة الفتن والاضطرابات التي عرفتها بعض أقاليم السودان، واستحكام العداء بين حكام سلطنة ورقلة وبعض العشائر البدوية(29).

2-2- التحولات الاقتصادية بمدنية ورقلة خلال ق 19:

منذ عام 1844 أصدر البرلمان الفرنسي قانونا يقضي بمد مناطق الاحتلال نحو الجنوب الجزائري، والارتكاز حول المبادلات التجارية بين الشمال والجنوب، وتم تتويج ذلك باحتلال بسكرة التي كانت مفتاح التجارة الصحراوية من الجهة الشرقية(30)، ليتم بعدها الزحف على مدينة ورقلة، بعد أن شهدت حالة من التشرذم والانقسام بين سلطنة نقوسة في الشمال بقيادة أولاد بن بابيه، وسلطنة وارجلان بالجنوب بقيادة أسرة بني علاهم، وكانت الخلافات التقليدية سجالا بينهما بخصوص من يتزعم المنطقة وهو الأمر الذي أدى إلى عدم الاستقرار السياسي وفتح المجال للفرنسيين للسيطرة عليها سنة 1858، إلى غاية الاستقرار نهائيا بها سنة 1882(31).

ولاشك أنه باحتلال الفرنسيين لورقلة حدثت العديد من التحولات والتغيرات في العديد من المجالات بالمنطقة، ومن ضمنها القطاع الاقتصادي، حيث عملت سلطات الاحتلال على إتباع سياسة اقتصادية تخدم الاقتصاد الفرنسي بدرجة الأولى والمعمرين بدرجة الثانية، سيما بعد أن تبين لها أن المنطقة تتوفر على إمكانيات اقتصادية هائلة بما فيها الموقع الاستراتيجي كونها تتوسط الصحراء، بالإضافة إلى طبيعة مناخها الذي يساعد على إنتاج البواكر من المنتجات الفلاحية خاصة الفاكهة، وتتوفر على مياه جوفية طينية عذبة على طول مجرى "وادي صغير "الذي ينطلق من جهة جبال الأطلس الصحراوي ومنطقة البيض حتى المنيعة التي تعد مصبا له(32).

وأمام ذلك بدأت سلطات الاحتلال في تنفيذ مشاريعها الاستيطانية التي من شأنها أن تخدم اقتصادها، ومن ذلك قيامها بإمداد شبكة السكك الحديدية وإحداث العديد من الخطوط، من ضمنها الخط الأوسط الذي يمتد من ورقلة إلى أمديد ومنه نحو النجير وبحيرة التشاد، وهو الخط الذي تم اختياره لإعادة تيار القوافل التجارية التي كانت تربط مدينة ورقلة بمنطقة زندر وكانو وكاتسنة، وبين ورقلة وتمبكتو باتجاه مالي هذا بالإضافة إلى استحداث العديد من الطرق البرية من ضمنها طريق الجزائر نحو شرق إفريقيا مرورا بمدينة ورقلة عبر الشاحنات(33).

وبعد تمكنها من تجسيد مشاريعها التوسعية هذه، سعت سلطات الاحتلال إلى الشروع في فرض هيمنتها على التجارة في المنطقة، من خلال مراقبة تحركات القبائل والتجار، وتأسيس لجنة مختصة لتنظيم تجارة القوافل بين الأسواق الشمالية والجنوبية، كما مارست بعدها الكثير من المضايقات على التجار، خاصة بعد انطلاق مقاومة الشريف محمد بن عبد الله، حيث منعت قوافل ورقلة من دخول أسواق بني ميزاب بمقتضى الاتفاقية الموقعة بينها وبين والميزابيين والتي تنص على غلق أسواقها في وجه المعادين لها(34).

أما النشاط التجاري الذي ربط ورقلة مع بقية بلدان المغرب والسودان الغربي أصبح هو الأخر محل استهداف من الفرنسيين، الذين سيطروا عليه عبر العديد من الوسائل نظرا للفوائد والأرباح الكبيرة المحققة منه، فللوصول إلى السودان الغربي سعى الفرنسيون لكسب ود الطوارق الذين كان لهم خبرة بالمسالك التجارة من أجل استغلالهم لصالحها، حيث نجحوا في توقيع معاهدة معهم تحصلوا من خلالها على حماية ومرافقة الطوارق لهم أثناء عبورهم إلى بلاد السودان، واطلاعهم على الطرق التجارية الهامة، ولضمان إحكام قبضتهم على الطرق التجارية قاموا بتشييد العديد من الأبراج العسكرية للمراقبة كبرج بني ثور والبرج الأحمر وبرج حاسي إنفل، وحاسي الشبابة، وبرج مريبل وحاسي الحمور وبرج مكمهان وغير ذلك(35).

وبإدخال سلطات الاحتلال الفرنسي هذه الإجراءات بدأ اختلال الأمن يشوب الطرق الصحراوية وانتشر البؤس والحرمان في عديد المناطق، كما دمرت تجارة القوافل التي كانت تشهد نشاطا مزدهرا قبل وصول القوات الفرنسية، وقد أوردت الجمعية الفرنسية لترقية العلوم في المؤتمر المنعقد بوهران مارس 1888 معلومات حول حركة القوافل بالجنوب، جاء فيه : "أن التجارة كانت نشيطة ما بين وهران وقورارة، و قدرت عدد الإبل المتجهة نحو قورارة بحوالي 14194 جمل محملة بسلع وبضائع متنوعة قيمتها نحو 70.249.427 فرنكا، وقفلت راجعة لعديد من البضائع الصحراوية كالتمور بالإضافة إلى الألبسة التقليدية والأفرشة وغيرها التي قدرت بحوالي 50.882.975 فرنكا "على ما دفع المشرفين هذه الجمعية التفكير في الاستغلال الأمثل لهذه التجارة والتحكم في القوافل وتوجيهها لخدمة مصالح المعمرين وتشجيعهم إلى التوجه نحو الجنوب لربط علاقات تجارية وطيدة وتحقيق أرباح طائلة (36).

وإلى جانب هذه الإجراءات التي أضرت بتجارة القوافل، أصدرت سلطات الاحتلال ترسانة من القوانين والمعاهدات التي تخدمها في الصحراء، خلال النصف الثاني من القرن التاسع

عشر، منها معاهدة غدامس 1862م التي تؤكد على المكوس التي تدفعها القوافل التجارية، ومعاهدة ميزاب التي تنص على غلق الأسواق في وجه أعداء فرنسا، بالإضافة إلى إصدار قانون خاص بالصحراء تزعم فرنسا أنها من خلاله تطبق الشريعة الإسلامية، عرف باسم قانون نابليون بونابرت الخاص بالصحراء الصادر بتاريخ 08جانفي 1870م، حيث يحتوي على عشرين، فصلا تتعلق بالمنازعات وبالحقوق وما يجب القيام به اتجاه السلطة الفرنسية(37).

وكان من نتائج هذه القوانين والإجراءات أن تم التشديد على تجارة القوافل في الجنوب الجزائري، ومن ضمنها القوافل المتهجة من وإلى مدينة ورقلة، خاصة بعد وضع المكوس وزيادة الضرائب على البضائع والمنقولات، وهو الأمر الذي أثر بالسلب على الواقع الاقتصادي بمدينة ورقلة ودفع الكثير من سكانها إلى استبدال التجارة بمهن أخري، كما دفع البعض إلى الهجرة نحو مناطق أخرى، طلبا للقمة العيش، خاصة بعد تلك المجاعات التي ضربت المنطقة وأدت إلى تقلص عدد سكان ورقلة في العقد السابع من القرن التاسع عشر (38).

وفي إطار التحولات الاقتصادية التي شهدتها مدينة ورقلة خلال القرن التاسع عشر كان لإلغاء تجارة العبيد، الأثر الكبير في انكماش التجارة بها، خاصة وأنها كانت مستودعا كبيرا لهذه التجارة التي كانت تمثل نصف التجارة التي تجتاز نطاق الصحراء شمالا، خاصة ورقلة التي كانت تمون مختلف مدن الجزائر، وتزود تونس ما تحتاجه على الدوام، لذلك تأثر اقتصادها بشكل كبير، لكون هذه التجارة قد شكلت مصدر دخل بالنسبة للعديد من تجارها الذين كانوا يحققون من خلالها أرباحا كثيرة وأهم ما نتج عنها بالنسبة لتجار ورقلة أن اكتفوا بالحصول على العبيد من المراكز التجارية القريبة كتوات وغدامس، وبأسعار أكثر من قبل(39).

ومن الأمور التي طرأت على الواقع الاقتصادي بورقلة خلال القرن التاسع عشر تلك التحولات التي شهدها قطاع الزراعة بالمنطقة، حيث عمدت سلطات الاحتلال الفرنسي إلى

الاهتمام بالمحاصيل النقدية على حساب المحاصيل المعاشية، كونها تدر أرباحا طائلة عليها، ولتحقيق ذلك انتهجت فرنسا سياسة تهدف إلى استغلال الثروة المائية للصحراء بإقامة سدود كبيرة الحجم، وآبار كبيرة يبلغ منسوبها أزيد من 15000 لتر، وبدأت في ذلك سنة 1883 عن طريق إرسال آلة لثقب الآبار مع فرقة مكونة من أربعين رجلا تابعين لكتيبة إفريقيا التأديبية، أفضت العملية الأولى للحفر بتفجر الماء بحجم150 لتر في الدقيقة، لتتوالى بعدها عمليات الحفر والتي وصلت إلى أربعة وخمسون محاولة سنة 1892 نجح معظمها في رفع منسوب المياه[40]، وهو الأمر الذي أثر بالسلب على أراضي الفلاحين وواحات النخيل التي كانت تعتمد على أنظمة سقي تقليدية، خاصة وأن الآبار الارتوازية كانت تحدث خللا في توزع المياه بطبقات الأرض، ناهيك على أنها كانت تتسبب في قلة المياه بعد أن أصبحت المياه الجوفية توجه لسقي المحاصيل النقدية كالتبغ والقطن وما إلى ذلك.

وهكذا يمكن القول أن الواقع الاقتصادي بمدينة ورقلة حدثت به الكثير من التغيرات والتحولات خلال القرن التاسع عشر، وانتقل الربح فيه من السكان الأصليين إلى المعمرين وسلطات الاحتلال الفرنسي، بعد أن تم القضاء على مختلف الأساليب التقليدية التي كانت قوام التجارة والزارعة في مدنية ورقلة والجنوب الجزائري عامة ناهيك عن فرض الرقابة والضرائب التي أثقلت كاهل التجار الأحرار وأصبحت تخدم المؤسسات والشركات الاستعمارية، بشكل يعكس تعدي الفرنسيين على خصوصية المجتمعات الصحراوية ودفع سكانها لاستبدال نشاطاتهم التي توارثوها عبر قرون، بنشاطات أخرى أقل ربحا وقيمة، هدفها ترك المجال للفرنسيين وأعوانهم من الإقطاعيين والرأسماليين.

خاتمة:

من خلال ما تقدم توصلنا إلى جملة من الاستنتاجات يمكن اختصارها فيما يلي:

-نظرا لموقعها الجغرافي المهم، برزت مدينة ورقلة عبر فترات تاريخية متواصلة كحاضرة مهمة من حواضر الجنوب الجزائري، لها حضورها الكبير في مختلف المجالات والقطاعات وعلى رأسها المجال الاقتصادي، الذي تصدرته عبر المبادلات التجارية، سواء من خلال أسواقها ومراكزها العامرة التي كانت تستقطب الكثير من التجار شمالا أو جنوب، ومن داخل الجزائر وخارجها، أو من خلال منتجاتها وقوافلها التجارية التي كانت تجوب أعماق الصحراء نحو إفريقيا جنوب الصحراء.

– على مرور الأزمنة والفترات التاريخية حافظت مدينة ورقلة على مكانتها الاقتصادية في الوسط الصحراوي، ولعبت أدورا حضارية كبيرة كان أن ساهمت فيها إلى حد بعيد في تعزيز الصلات الاجتماعية والاقتصادية بين مختلف مناطق الجزائر من جهة، وبين الأقاليم الأخرى كالمغرب وتونس وإفريقيا جنوب الصحراء من جهة أخرى فشكلت بذلك همزة وصل حضارية لا غنى عنها في المبادلات التجارية والاقتصادية والعلاقات الإنسانية عامة بين الشمال والجنوب.

– منذ أن وصلت قوات الاحتلال الفرنسي للجنوب الجزائري حدثت الكثير من التغيرات والتحولات في المنطقة، وكانت المجال الاقتصادي من أول هذه المجالات التي مسها التغيير، نظرا للسياسات والمشاريع الاستعمارية التي استهدفت التقاليد الاقتصادية لسكان الجنوب الجزائري، وكانت مدينة ورقلة كغيرها من مدن الجنوب المتضرر الأكبر من ذلك، بعد أن تراجعت حركة المبادلات والقوافل التجارية، وظهور العديد من الأنماط الزراعية المستجدة التي تخدم الفرنسيين دون سواهم، وبذلك فقدت المدينة مكانتها الاقتصادية بعد قرون من الحضور القوي بوسط الصحراء.

الهوامش:

[1]– إبراهيم محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تع: الجيلاني بن إبراهيم العوامر، دار ثالة، الجزائر: الأبيار، 2009، ص: 35.

[2]– عبد الباسط هويدي، التراث العمراني الصحراوي والهوية الثقافية للقصر العتيق بمدينة ورقلة مقاربة سوسيوثقافية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع: 16، جامعة وادي سوف، 2018، ص: 204.

[3]– نفيسة بلخضر، مدينة ورقلة ودورها في تجارة القوافل الصحراوية، إشراف: صالح بوسليم، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة غرداية، 2015، 2016، ص: 14.

[4]– أحمد ذكار، حاضرة وارجلان وعلاقاتها التجارية بالسودان الغربي 1591-1883، إشراف: محمد حوتية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإفريقي، جامعة أدرار، 2009-2010، ص: 30.

[5]– رضوان شافو، الجنوب الشرقي خلال العهد الاستعماري ورقلة أنموذجا 1844-1962، إشراف: تلمساني بن يوسف، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة الجزائر، 2011-2012، ص: 39.

[6]– ناصر الدين سعيدوني، ورقلة ومنطقتها في العهد العثماني، مجلة الأصالة، الجزائر: وزارة التربية الوطنية، عدد خاص رقم 41، 1977، ص: 73.

[7]– أبو عبد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار المصادر للكتاب، لبنان، دت، ص: 182.

[8]– الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج:02، مكتبة الثقافة الدينية،مصر، دت، ص: 24.

[9]– ياقوت الحموي، معجم البلدان، تح: فريد الجندي، ج:05، لبنان: دار الكتب العلمية، ص: 427.

[10]– أبو الحسن بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تح : إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والوزيع، بيروت، ط 01، 1970، ص: 126.

[11]– أبو العباس أحمد الدرجيني، طبقات مشائخ العرب، تح: إبراهيم طلاي، ج:02، قسنطينة : مطبعة البعث، دت، ص: 447-450.

[12]– دينيس بيلي، تاريخ ورقلة 1872-1922، تر: علي إيدير، ورقلة: مطبعة إيتي دنوب، 1993، ص: 6، 7.

[13]– أحمد ذكار، مدينة ورقلة التسمية والتأسيس (دراسة تاريخية)، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع: 17 جامعة ورقلة، 2014، ص: 161.

[14]– دينيس بيلي، المرجع السابق، ص: 07.

[15]– مولاي بلحميسي، مدينة ورقلة في رحلة العياشي، مجلة الأصالة، الجزائر: وزارة التربية الوطنية، عدد خاص رقم: 41، 1977، ص: 62.

[16]– رضوان شافو، المرجع السابق، ص: 31، ينظر أيضا:

–Paul Solelliet , Voyage de Paul Soleillet d'Alger à l'Oasis d'in- salah, Alger,1875, p12.

[17]– بلخضر نفيسة، المرجع السابق، ص: 12.

[18]– مرجاني عبد القادر، السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19، إشراف: مجاود محمد، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، 2019-2020، ص: 293.

[19]– نفسه، ص: 293. ينظر أيضا:

- Paul Soleillet, Op-Cit , pp: 185-186.

[20]– رضوان شافو، المرجع السابق، ص: 117.

[21]– عبد الحميد زوزو، الوضع في منطقة ورقلة قبل الاحتلال الفرنسي، مجلة الأصالة، الجزائر: وزارة التربية الوطنية، عدد خاص رقم: 41، ص: 103.

[22]–أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، تح: سعيد الفاضلي، ط01، دار السويدي، الإمارات، 2006، ج: 01، ص:111.

[23]– ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص: 83.

[24]– نفسه، ص: 83.

[25]– ينطلق هذا الطريق من ورقلة ومنها إلى المنيعة ثم إلى عين صالح ومنها إلى جبل مويدير Mouydir بمنطقة الهقار أين ينقسم إلى عدة مسالك أحدها يتجه إلى أغاديس التي تبعد عن أحير (تقع حاليا في جمهورية النيجر) في مسيرة سبعة أيام لا يصادف فيها الماء إلا مرة واحدة، وهي مدينة كبيرة تشبه مدينة تونس ولا يمكن للقافلة أن تتوغل في إفريقيا دون أن تدفع الضرائب لسلطانها، وآخر يتجه إلى غاو مرورا على منطقة أبالسة وتين زاواتين وكيدال ثم إلى بورم، ومنها إلى تادمكة وأخيرا غاو، كما أشار إلى ذلك ليفسكي Lewicki في كتابو دراسات مغربية وسودانية، ينظر:

-Tateuz Lewicki, Etudes magrébines et soudanaises. Ed, scientifiques de la polognie. 1976 ,P:35.

[26]– محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792، 1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1972، ص: 162.

[27]– قشاشني علي، كوثر هاشم، فضاءات التبادل التجاري بني الجزائر ودول الساحل الإفريقي على ضوء كتابات الرحالة والمبعوثين الفرنسيين خلال القرن 19، مقال منشور ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول، التواصل الحضاري بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي بين القرنين 16 و20، جامعة وادي سوف، 2019، ص: 8.

[28]– نفيسة بلخضر ، المرجع السابق، ص: 71.

[29]– رضوان شافو، المرجع السابق، ص: 95.

30– جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر، الجزائر، 1994، ص: 140.

31– أحمد ذكار، المرجع السابق، ص: 133.

32– مرجاني عبد القادر، المرجع السابق، ص: 235.

33– سميرة دعاشي، التجارة الفرنسية العابرة للصحراء الجزائرية ودورها في تراجع التجارة التقليدية 1900-1945 مقال منشور ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول، التواصل الحضاري بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي بين القرنين 16 و20، جامعة وادي سوف، 2019، ص: 3-6.

34– نفيسة بلخضر، المرجع السابق، ص: 141.

35– نفسه، ص: 142.

36– مرجاني، المرجع السابق، ص: 142.

37– أحمد ذكار، المرجع السابق، ص: 166.

38– عبد القادر، دور الرحالة والمستكشفين في عملية التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية ، مدونة ملتقى التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية ، منشورات مديرية الثقافة ورقلة ،1999، ص:7. نقلا :عن أحمد ذكار.

39– بلخضر نفيسة، المرجع السابق، ص: 144.

40– دنيس بيلي، المرجع السابق، ص: 28-29